2 ـ ازدهار المدارس

على عكس العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي التي تميزت فيها الجغرافيا بحيوية كبيرة وتطور سريع واجتهادات قيِّمة، جاءت الحقبة الموالية التي امتدت على ما لا يقل عن نصف قرن من الزمن، كمرحلة تُسمع لها جعجعة ولا يُرى فيها طحن ! مرحلة غزيرة الإنتاج، شحيحة العطاء، كثيرة الاتباع، قليلة الإبداع. إن هذا الحكم، مهما بدا قاسيا، فهو حكم بعيد عن المبالغة، قريب من الإنصاف؛ حكم يستند إلى الجغرافيا نفسها التي ما فتئت تتوزع بين اهتمامات متنوعة ومشاريع متعددة ليس لها رابط نظري يجمع شتاتها ويلم شملها، إذ بات الجغرافيون يجترون أفكار سلفهم وهم يتذبذبون بين اتجاهات الجغرافيا الثلاثة المتداولة.

وأغرب ما في الأمر أن هذا الانكماش الذي أصاب الفكر الجغرافي سببه أساساً تعلق الجغرافيين بنموذج العلوم الطبيعية وتعصبهم له؛ لأنه في نظرهم هو الضمان الوحيد الذي يُكسب المادة خصائص العلم ويخلع عليها رداء التقدير والاحترام. والغرابة لا تكمن في الأخذ بالمنهج بقدر ما تكمن في تطبيقه دون ما تحفظ بالنظر إلى اختلاف الظاهرات المدروسة. ولا شك أن هذا يعني أن الجغرافيين لم يمعنوا النظر جيدا في موضوع بحثهم من جهة، ولم يدققوا في الأدوات المستعارة من جهة أخرى. فطبيعة الموضوع الجغرافي المركبة تقتضي تجاوز المحسوس والانتقال من المظهر إلى المخبر؛ أي العناية بالجوانب البشرية والاجتماعية، عناية تليق بأهمية الموضوع وليس بمجرد عرضها عرضاً سطحياً يكتنفه الحذر والريبة كما يحدث أحياناً !

وعلى أية حال فجغرافيو بداية القرن ليس في عصاهم سير. فزيادة على محاكاتهم للطبيعيات والسير على نهجها، الأمر الذي صدهم عن التفلسف في ماهية مادتهم والتأمل في خصوصياتها، لم تكن العلوم الإنسانية الأخرى قد حققت بعد نتائج تذكر من شأنها أن تخرج الجغرافيا من «غفلتها»؛ لكنها ستظل كذلك حتى بعد أن تحرك ركب تلك العلوم وهبت رياح الفلسفة وأخذ الإنسان يحتل فيها مواقع جديدة.

أما العنصر الإيجابي الوحيد الذي ميز الجغرافيين في هذه الحقبة الطويلة هو قدرتهم الكبيرة وبراعتهم الفائقة على مزاولة الميدان. ولقد كان من نتائج هذه التجوالات أن آطلع الباحثون على أوضاع شديدة التنوع، معقدة التركيب كانت سبباً من أسباب تعدد المدارس. وهذه ظاهرة في منتهى الخطورة إذ جاءت تُقر إنقسام الجغرافيا.

1 ـ الجغرافيا لا تفهم التاريخ

1.1 ـ الانصراف عن الجغرافيا

إذا كانت الجغرافيا في القرن الماضي قد شدت إليها الأنظار واستأثرت بالاهتمام، فهي لم تبق كذلك في مستهل القرن العشرين. ويمكن ردّ هذا التراجع بإيجاز إلى تقلص الوظيفة الانتفاعية للمادة. فبعد تعزيز العلاقات بالمستعمرات وتوطيد الروابط بالعالم الجديد لم يعد للجغرافيا دور يذكر في جمع المعلومات عن الموارد والمواصلات وإمكانات الاستيطان. وعليه أخذ نشاط الجمعيات البحرية والتجارية والاستعمارية يفتر شيئاً فشيئاً إلى أن غَطَّ بعضها في سبات عميق، بينما اختفى البعض الاخر نهائياً.

ثم إن النعرات القومية والحركات الوطنية التي ظلت متأججة في أوروبا لغاية الحرب العالمية الأولى، والتي ساهمت كما نعلم إلى حدٍّ ما في بلورة الظاهرة الجغرافية ـ إلى درجة اشتراك بعض الجغرافيين فيها بالسيف والقلم مثل سِزار بتّيستي*، ناصر الوحدة الايطالية وشهيدها ـ سرعان ما

* Cesar Battiste

سكنت في البلدان الكبرى التي اكتوت بنار الحرب واصطلت بلهيبها؛ باستثناء ألمانيا البلد الوحيد الذي ستستمر فيه تأثيرات السياسة في الجغرافيا بشكل أقوى.

أما تدريس مادة الجغرافيا في كل المستويات، من التعليم الأولى إلى الجامعة، فهو من قبيل التقليد أكثر مما هو من باب الحاجة والإقتناع بأهمية المادة في تكوين المواطن. فالجغرافيا، كما كانت ترى ذلك المؤسسة التعليمية، ينحصر دورها في نشر الثقافة العامة، ليس إلّا. وهذا هو الاعتبار الوحيد الذي أبقى على وجودها.

2.1 ـ الجغرافيا والتيارات الفلسفية

إذا كانت الجغرافيا المعاصرة قد تشبعت في نشأتها بالفلسفة الغائية فجاءت محاولة تفسيرة شاملة للإنسان والكون معاً، وإذا عملت بعد ذلك، مع تقدم العلوم وبتأثير من مذهب التطور* [1] على اكتساب الصفة العلمية لتصبح دراسة بيئية للإنسان، فإلى ماذا سيؤول أمرها في مطلع القرن العشرين وكل مكتسبات الفلسفة للمرحلة السابقة باتت موضوع نقاش ومراجعة ؟ إن الوضع الجديد يقتضي فعلا تعديل الرؤية إلى الحياة وابتكار طرق أخرى لفهمها.

ففي هذا السياق بالذات برزت تصورات فلسفية جديدة قد تشد إليها اهتمام الجغرافيين كفلسفة **هيدجر*** مؤسس الوجودية* [2]، الذي سمى وجود الإنسان بالآنية **الدّازين*** [3]. لكن هؤلاء ما يزالون على عهدهم يتمسكون بمنهج الطبيعيات ويُعرضون عن الفلسفة التي احتدم فيها الجدل بين الفلاسفة أنفسهم وحتى بين بعض العلماء الذين كانت لهم إسهامات طيبة في تطوير الرياضيات الحديثة والمنطق الصوري* [4] والفزياء النظرية. فهل تتأثر الجغرافيا بهذه المستجدات الفكرية التي تولدت عن الوضعية المنطقية* [5] ؟. أبداً، فالجغرافيون ملتصقون التصاقاً بالطبيعيين الذين لا يهمهم حتى الساعة مضمون معرفتهم.

1

«مذهب التطور مذهب قديم [...] غير أنه لم يصبح مذهبا علميا إلا في العصور الأخيرة، يوم أخذ العلماء يعللون نشوء الأنواع الحية بقانون تنازع البقاء وقانون الانتخاب الطبيعي (دارون) أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والوراثة (لامارك)، أو يجعلون التطور قانونا كليا محيطا بكل شيء : من السديم إلى الشمس والكواكب السيارة، ومن الأنواع الكيماوية إلى الأنواع الحية، ومن الوظائف العضوية إلى الملكات العقلية والمؤسسات الاجتماعية (هربرت ـ سبنسر)».
جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء I، ص 295.

2

«الوجودية مدرسة فلسفية تقول بأن الوجود الإنساني سابق على الماهية، أي أن الإنسان صانع وجوده بغض النظر عن أي عوامل متحكمة فيه، وأن العقل وحده عاجز عن تفسير الكون ومشكلاته. والإنسان يستبد به القلق عند مواجهة مشكلات الحياة، وأساس الأخلاق قيام الإنسان بفعل إيجابي، وبأفعاله تتجدّدُ ماهيته وإذن وجوده العقلي يسبق ماهيته».

* Evolutionnisme

* Martin Heidegger 1889-1976.

* Existentialisme

* Dasein

«كما تؤمن الوجودية بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمتع نفسه ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه».
أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 145.

* Logique

* Positivisme logique

ومع ذلك لمن تمنع هذه الغفلة تسرب بعض الأفكار الفلسفية إلى الجغرافيا كما نبَّه إلى ذلك **أندري مِنْيي*** في كتابه «تاريخ الفكر الجغرافي في فرنسا»[6] حيث يتحدث عن تعلق عدد من زملائه بحدسية **برجسون***[7]. وبناءً على هذا المذهب الذي يقدم الحدس على البرهان أخذ هؤلاء الجغرافيون ينتقدون أساليب التدقيق المفرط والتكلف الكبير الجاري بهما العمل بجامعة السربون. وربما كان هذا عاملاً من العومل التي تفسر النزعة الميدانية عند عدد كبير من الباحثين واعتمادهم على التجربة المباشرة لفهم الواقع.

ولقد عرفت ألمانيا، صدر هذا القرن، حركة أقوى من التيار البرجسوني في مواجهة العقلانية. فهيدچر لم يكن إلّا واحداً من بين أولئك الذي ثاروا عليها. وما يميز هذا الاتجاه الجديد الذي عرف بـ «الثورة المحافظة» هو اعتبار العلوم الاجتماعية – علوم الروح كما يقول الألمان – علوماً تخالف العلوم الأخرى كل الاختلاف. فالفكرة ترجع أصلًا إلى **دُرُويْسَن***، لكن الموضوع طرقه بعد ذلك وبإسهاب كل من **دِلتاي*** و **ريكَرْت*** و **فندَلْبَنْد***. لكن الموضوع سرعان ما تجدد بعد أن نبه دِلتي وتلاميذه إلى المدلول الذي يعطيه كل شخص لحياته، الأمر الذي عرّى النهج الوضعي وكشف عن قصوره.

فدلتاي[8] قد سعى إلى إيجاد ثورة «كوبرنيكية» في علوم الروح (ما يسمى الآن العلوم الإنسانية) التي يعرفها أنها «مجموع الدراسات التي موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع»؛ وذلك بتأسيس «علم تجربي خاص بالظواهر الروحية». فبدأ بالتجربة التاريخية وتأثر بـ **هيجل*** و **كَنْط** فأنشأ فلسفة كان يرجو منها «أن تفعل في العالم المعنوي بعد أن تستخرج قوانين». فهو تناول التاريخ على منوال كَنْط بالنسبة للعقل المحض وذلك بـ «نقد العقل التاريخي». فابتدأ من حيث ابتدأ هيجل أي من ضرورة «فهم الإنسان بوصفه موجوداً تاريخياً في جوهره، وأن وجوده لا يتحقق إلا في جماعة». فانطلق يدرس «علوم الروح» على أسس تاريخ الوجود الإنساني، بمعنى أن للإنسان بعداً أنسانياً هو التاريخ، والتاريخ هو الزاوية التي ينبغي أن يدرس منها العقل الإنساني. أما الطبيعة فهي غريبة عن

* André Meynier

* Intuitionnisme bergsonien

3

الدَّازين «كلمة ألمانية معناها الوجود الحاضر والوجود القابل للاوجود. وعند هيدچر كينونة الوجود الإنساني أو كيفية وجوده. ولما كان العالم في تبدل مستمر كانت هذه الكينونة الإنسانية غير مستقرة على حال. فماهية الإنسان إذن وجوده وحقيقته، نزوعه إلى ما يريد أن يكون. فهو إذن يحدد ذاته وينسج جميع إمكاناته بيديه ويجاوز بفعله حدود الواقع وينفتح على العالم» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الأول، ص 556.

* Droysen

* Wilhelm Dilthey 1833-1911

* Heinrich Rickert 1863-1936

* Wilhem Windelband 1848-1915

4

المنطق الصوري «هو النظر في التصورات والقضايا والقياسات من حيث صورتها لا من حيث مادتها. ويطلق في العادة على [...] المنطق القياسي بوجه عام» عينه، الجزء الثاني، ص 429.

* Friedrich Hegel 1770-1831

5

الوضعية المنطقية «مذهب انبثق عن جماعة من الفلاسفة عُرفوا بدائرة «فيينا». وهي تسمى على الوجه الأصح بالتجريبية المنطقية، كما تطلق عليها أيضا الوضعية الجديدة. فقد ظهرت في أول الأمر كـ «فلسفة علمية» «تقوم على أساس التجربة التي تعدها المصدر الوحيد للمعرفة. وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق

الإنسان، ويستطيع المرء إدراكها بواسطة الملاحظة الحسية. أما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الإنسان. ولا يمكن إدراكه إلا من الداخل، ولهذا فإن العلاقة بين الإنسان والموضوع، في العلوم الورحية، علاقة مباشرة، لأن الموضوع هو التجربة الإنسانية الحية. ومن هنا فإن الأساس في العلوم الروحية هو التجربة الحية ويقصد بها الأحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعرها ونحياها ونعيها.

وعلى الرغم من أن العلوم الروحية قد تتناول بعض الأشياء والعمليات الفزيائية، فإنها إنما تتناولها من حيث هي آثار، أو من حيث أن لها علاقة بتحقيق الأغراض الإنسانية، أو تفيد في التعبير عن الأفكار والمشاعر الإنسانية وإذن لا تهتم العلوم الروحية بالظواهر الفزيائية إلا من حيث هي تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعي. ويرى دِلتاي أن ملكة المعرفة في الدراسات الإنسانية هي الإنسان كله. والأعمال العظيمة التي نمت فيها لم تنشأ عن العمليات العقلية وحدها، بل عن قوة الحياة الشخصية. لذلك كانت فلسفة دِلتاي جوهريا فلسفة حياة؛ والحياة عنده ليست الوظائف الحيوية التي يشارك فيها الحيوان الإنسان، بل هي أساساً جماع الحيوات الإنسانية الفردية التي تؤلف الواقع الإجتماعي والتاريخي لحياة الإنسان كلها. وكما أخذ دِلتاي على الفعليين تجريداتهم الشحبية، كذلك يأخذ على التجريبيين قصرهم المعرفة على الادراك الحسي لأن في هذا إفقاراً لمضمون الحياة.

ولهذا إذاً كان الجغرافيون الألمان أقوى تأثراً من غيرهم بالفلسفة وتطورها وبالمناخ الفكري المصاحب لها. وهنا يكمن سبب اختلاف الجغرافيا الألمانية بالمقارنة مع غيرها في اختيار المواضيع التي فحصتها خلال النصف الأول من هذا القرن.

3.1 ـ الجغرافيا والحركة العلمية

1.3.1 ـ نهضة العلوم الإجتماعية

تميزت العلوم الاجتماعية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر

معطياتها وتنظيمها. ثم تحولت إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم المختلفة» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 322.

6

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France**, op. cit.

7

نظرية الحدس أو الوجدان «إحدى نظريات المعرفة وتقول بأن الحدس هو أفضل مصدر للمعرفة وعن طريقه يمكن معرفة الحقائق التي تفوق التجربة» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 226.

و «الحدس عند برجسون عرفان من نوع خاص، شبيه بعرفان الغريزة، ينقلنا إلى باطن الشيء، ويطلعنا على ما فيه من طبيعة مفردة لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ، بخلاف المعرفة الاستدلالية أو التحليلية التي لا تطلعنا إلا على ظاهر الشيء. قال برجسون «الحدس هو التعاطف العقلي الذي ينقلنا إلى باطن الشيء ويجعلنا نتحد بصفاته المفردة التي لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ»...» جميل صليبا، سابق، الجزء الأول، ص 453.

ويرى برجسون «أن العقل هو الذي يكفل للإنسان صناعة الأشياء والتي يحتاج إليها لتأمين بقائه في الحياة. ولهذا كان موجهاً إلى الفعل ومعالجة المادة. وتبعاً لذلك فإنه غير قادر على فهم الحياة. وقصارى ما يستطيعه هو أن يقوم بتحليل العمليات الفزيائية والكيميائية التي بها تتحقق الحياة، وأن يصنع الآت تمكنه من السيطرة عليها. فلا بد إذن من ملكة أخرى يستطيع بها الإنسان إدراك الحياة، ملكة أقرب إلى الغريزة منها إلى العقل وهذه الملكة هي الوجدان [...] أو العيان الميتافيزيقي.

بتطور حثيث جعل عدداً من فروعها يزهر ويثمر كالاقتصاد والتاريخ، ما بين 1860 و 1870، ثم علم الاجتماع حوالي 1900 بفضل زمرة من العلماء المرموقين مثل **دوركايم***، **فيبر*** و**بَريطو***، الذين كشفوا الضباب عن تخصصهم ثم قعَّدوه وعمقوه ليصبح علماً متماسكاً له قيمته ووزنه بين باقي العلوم.

أما السِّلالة (الاثنولوجيا) فهي بدورها قطعت أشواطاً لا بأس بها إذ أصبحت تضبط موضوعها أكثر من ذي قبل، هذا في الوقت الذي حققت فيه نتائج هامة في ميدان اكتشاف الحضارات، فالسلاليون يجمعون ويصفون كل ما تستعمله الجماعات البشرية من أدوات وتقنيات. كما ينقلون لغاتهم وكتاباتهم، ويستنطقون الخرافات والأساطير. وتعد تجربة **مالينوفسكي***، الذي عاش أهالي جزر السود بأقيانيا* تجربة رائدة جعلت من البحث الميداني المدخل الطبيعي لكل عمل رصين.

2.3.1 ـ حملة على المذهب التطوري

كان المذهب التطوري ـ بقيادة **هربرت سبنسر***، مؤسس الفلسفة التطورية، و**لويس مرجان**، صاحب النزعة التطورية والماركسية للإناسة الاجتماعية ـ هو الذي يوجه السِّلالة وعلم الاجتماع في الفترة ما بين 1860 و 1870. لكن الباحثين سرعان ما تنبهوا إلى خصائص المجتمعات فأخذوا ينأون عن التأويلات العامة والأحكام المطلقة، مفضلين الأخذ بنظرية الانتقال الثقافي. وهم على كل حال أصبحوا يعتبرون أن المهم هو الإحاطة بخصائص المكان بحيث يسعى الباحث إلى إبراز مقوماته والاطلاع على عادات أهله وفهم مؤسساتهم. وليس من عمل الباحث أن يرتب الحضارات حسب مقياس معياري أساسه الأخلاق أو درجة التقدم، بل عليه فقط أن يتوخى الموضوعية القصوى وأن يلتزم بنقل الواقع كما هو.

ولقد تجسد ردّ الفعل هذا في تيارين فكريين أساسيين : النزعة الثقافية* والنزعة الوظيفية*. فالنزعة الثقافية تشكل اتجاها في الإناسة الإجتماعية وهو يهدف أولًا وقبل كل شيء إلى التمييز بين ما هو ثقافي وما هو طبيعي. والنزعة الثقافية ظهرت كتيار معارض للاتجاه الوظيفي الذي يقول

«يقول برجسون «المطلق لا يمكن أن يعطي إلا في الوجدان، بينما كل الباقي يعتمد

* **Emile Durkheim 1858-1917**

* **Max Weber 1864-1920**

* **Velfredo Pareto 1848-1923**

على التحليل» لكن هذا الوجدان ليس وليد الغريزة بل هو وليد التفكير العقلي المتواصل، والتأمل الفكري المستمر وحشد الوقائع العلمية السليمة ومقارنتها بعضها ببعض، والعقل هو الذي يحقق الوجدان ويجعله محدداً، وينميه في قول منطقي.» بدوى (عبد الرحمان)، **موسوعة الفلسفة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة

* **Bronislav Malinovski 1848-1942**

* **Iles Trobiand**

الأولى 1984، الجزء الأول، ص 321 وما بعدها.

* **Herbert Spencer 1820-1903**

* **Lewis Morgan 1818-1881**

8

جلّ ما ورد عن دلتاي وفلسفته مقتبس عن الموسوعة الفلسفية لعبد الرحمان بدوي، سابق.

* **Culturalisme**

* **Fonctionnalisme**

بفكرة انسجام المجتمع، إذ أن الوظيفيين يعتقدون أن التوترات التي تحصل داخل المجتمع تنتهي دائما إلى وضع أفضل. والنزعتان معاً يجب اعتبارهما كشكليين تحليليين، أي إطارين فكريين تنطلق منهما النظريات وترتكز عليهما الأبحاث من جهة، وكتصور ذهني (إيديولوجي) للمجتمعات، من جهة أخرى.

1.2.3.1 ـ النزعة الثقافية في الجغرافيا

تقوم النزعة الثقافية على خمس قضايا هي :

أ ـ مفهوم «الشخصية الأساسية» أو «الشخصية الأولية». وهي تعني أن للمجتمع ثقافةً متميزة، أي نظاماً معيناً لقيم أساسية يرتكز عليها. وهي التي تصوغ الشخصية بواسطة مؤسسات أساسية موحدة كنظام الأسرة ونظام التعليم والحالة الديمغرافية إلخ... وهذا ما يجعل أصحاب هذا الرأي يولون اهتماماً بالغاً لمسألة التنشئة الاجتماعية[9]، التي تنتقل بواسطتها القيّم الجوهرية من جيل إلى آخر.

ب ـ كل مجتمع يتطور نحو تشكل كيان ثقافي متميز حتى ولو تشابهت المجتمعات من حيث درجة نموها الاقتصادي كما تشهد على ذلك الملاحظة والتجربة معاً. فالألمان كما يقول لِنتن* يختلفون ثقافيا عن الأنجليز.

ج ـ كل نظام للقيم الاجتماعية يجنح إلى التميز من القيم الكبرى.

د ـ تسعى ثقافة المجتمع إلى الانتظام على شكل وحدة من عناصر متجانسة ومتكاملة فيما بينها، أي منظومة تترابط كل مكوناتها ترابطاً عضوياً.

هـ ـ يعيش الإنسان في عالم رمزي يصنعه هو نفسه، لذا فإن الأحكام التي يصدرها والمعاينات التي يقوم بها والإدراك الذي يتوفر لديه كلها منسوبة إلى الثقافة التي ينتمي إليها ذلك الإنسان.

انفعلت جل العلوم الإنسانية بالنزعة الثقافية، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة وعلى فترات متباعدة. ولو أن اتصال الاتجاه الثقافي

9

«التنشئة الاجتماعية هي العملية التي يتم بها انتقال الثقافة من جيل إلى جيل والطريقة التي يتم بها تشكيل الأفراد منذ طفولتهم حتى يمكنهم المعيشة في مجتمع ذي ثقافة معينة، ويدخل في ذلك ما يلقنه الآباء والمدرسة والمجتمع للأفراد من لغة ودين وتقاليد وقيّم ومعلومات ومهارات الخ...» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 400.

* Linton

بالاجتماع حدث مبكراً فهو لم يؤثر فيه كثيراً رغم ما قام به من مجهود في هذا الباب عالم الاجتماع الألماني **طونيس***. كما لم يؤثر أيضاً في الاقتصاد الذي لم ينضج بعد ليتخلى الباحثون عن فرضياتهم السطحية حول معللات الإنسان[10]. لكن التيار الثقافي سيجد مرتعاً خصباً في السلالة حيث ستتأسس مدارس عتيدة بجهد باحثين بارعين مثل **رالف لِنتَن*** و **إرِك فروم*** (المزداد سنة 1900 و **أبْرَهام كاردنر*** المزداد سنة 1891)، صاحب مفهوم «الشخصية الأساسية» وغيرهم.

* Ferdinand Tonnies 1855-1936

* Ralph Linton 1893-1953

* Erich Froum

* Abraham Kardiner

10

المعللات في الاقتصاد هي مجموع العوامل المحددة لسلوك المستهلك.

أما بخصوص التاريخ والجغرافيا فهما سليتقيان – بالنسبة لفرنسا على الأقل – لخوض نفس المعركة. وهي المعركة التي سيقودها لوسيان لفيفر الذي عارض النزعة الاجتماعية القطعية كما يعبر عنها أصحاب «الحوليات الاجتماعية»* بزعامة دوركايم. فباسم التاريخ وباسم الجغرافيا أيضاً دافع لفيفر على فكرة الالتزام بالواقعية والاهتمام بخصوصيات كل فترة تاريخية وكل منطقة جغرافية. فهو لا يتحمل أن تلوى رقبة الأشياء بسبب الآراء الاجتماعية القبلية والتعميمات الكبرى.

* L'Année Sociologique

لذلك كانت للنزعة الثقافية بصمات واضحة على البحث التاريخي وهو ما تعبر عنه صراحة «مدرسة الحوليات»*، التي أخذت تخرج الدراسة التاريخية من الوضعية الضيقة (التي ظلت قابعة فيها طيلة العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، تجمع المعلومات وتكدسها، دون أن تتساءل عن معناها ومرماها) لتوجه اهتمامها نحو قضايا جديدة ذات صلة بالثقافة والمجتمع على غرار ما قامت به جماعة من المجددين كلسيان لفيفير، طبعاً، أو **مارك بلوك***.

* L'Ecole des Annales

* Marc Bloch 1886-1944

أما الجغرافيا فإن الهدف الذي تتوخاه ليس هو المعرفة الشاملة لتوزيع السكان وأسلوبهم في الاستغلال والتنظيم للبيئة، بل هو رسم لوحة واقعية تعكس قدر الإمكان تنوع العالم. وهنا نعثر على منبع من منابع الجغرافيا الفيدالية التي ستبرع في البحث الاقليمي طيلة نصف قرن من الزمان. هذا في الوقت الذي ينصرف فيه الجغرافيون الألمان إلى دراسة «المشاهد الثقافية» تأسياً بباحثين نذكر منهم على وجه الخصوص **شلوتر وباسرج***.وهذا الاتجاه الثقافي، وإن كان يلتقي في بعض الجوانب بالبحوث الفرنسية، فهو يختلف

* Seigfried Bassarge 1867-1958

عنه من حيث دقة المقياس وحجم الموضوع.

أما انجلترا والبلاد المنخفضة فإن التيار الثقافي سيتسرب إليهما عبر التأثيرات الفيدالية، بينما ستجمع بلدان أوروبا الجنوبية والغربية، بدرجات متفاوتة، بين مؤثرات المدرستين الفرنسية والألمانية. غير أن النزعة الثقافية التي تأصلت جذورها في التربة الألمانية سيكون لها شأن وأي شأن خارج أوروبا، بالولايات المتحدة بالذات حيث ستتأسس مدرسة بركلي الشهيرة.

وهكذا ستصبح الاهتمامات الثقافية ضمن المعالجة الإقليمية إحدى السمات البارزة للجغرافيا العالمية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. وهذا ما جعل البعض يقول بوجود نوع من التواصل الفكري في الجغرافيا من كَنْط «الذي لا يستهان بمساهمته في هذا الميدان» إلى رائدي القرن التاسع عشر : هَمْبُلت وريتَر؛ ثم إلى الكتاب المعاصرين[11].

11

Paul Claval, **Les mythes fondateurs des sciences sociales**, op. cit. p 162.

2.2.3.1 ـ الجغرافيا والنزعة الوظيفية

إذا كان المذهب التطوري قد خيَّب آمال العلوم الاجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، إذ جر عليها جملة من المشاكل الشائكة، فإن النزعة الثقافية، التي جاءت كبديل له، لم تستجب هي كذلك لرغبات جمهور عريض من الدارسين الذين رأوا فيها تضييقاً جائراً للموضوع، يحول دون الفهم الشامل للمجتمعات. فالإنارة الثقافية مهما كانت هامة فهي تظل إنارة محدودة لا تكشف عن الواقع الكلي، حركة وتنظيماً. ويعني هذا أنها لا تسمح إلا بتفسيرات جزئية، أي تفسيرات قاصرة قد تفضي إلى خطإ في التأويل ومن ثم إلى متاهات خطرة. ثم إن البحث في ميدان العلوم الاجتماعية اعتاد دراسة مختلف العناصر دراسة مجزَّأة في سياق تسلسلي. لذا وذاك أخذ البحث يعالج القضايا في علاقاتها المتنوعة ضمن منظور كلي. وهكذا ظهرت النزعة الوظيفية.

ارتبطت الوظيفة أصلًا بالمدرسة السِّلالية البريطانية بزعامة **راذكليف بْراوْن*** و **مالينوفسكي***، ثم بالإناسة الاجتماعية. وهي المدرسة التي تقول بوجوب دراسة الظواهر الثقافية (الحضارة) من حيث الوظائف الاجتماعية التي تؤديها، علماً بأن الثقافية ليست مجرد حشد لعناصر متفرقة

* **Alfred Reginald Radcliffe Brown 1881-1955.**

* **Bronislaw Malinowski 1884-1942**

بل تركيبة معقدة ومترابطة المكونات. فـ«المنظومة الزراعية» مثلاً، التي تتجلى في أدوات الحرث والبذور والحصاد ووسائلها، بإمكانها أن تغير العادات الغذائية وأسلوب الاستغلال الفلاحي ونظام الإرث والتعامل التجاري ومفهوم الغني...، والعكس صحيح.

ففي الاجتماع ظهرت الوظيفة كفرض أو كنظرية مقتبسين من الإناسة تناط بهما مهمة تفسير الواقع الاجتماعي من خلال رؤية شمولية للأدوار والوظائف التي تقوم بها مختلف مكونات المجتمع باعتباره نظاماً متماسكاً ملتحماً. وهذه قاعدة منهجية عند كل من دوركايم و **موص*** : فالظاهرة الاجتماعية كل لا يقبل التفكيك بأي حال من الأحوال. كما لا يجوز عزل هذه الظاهرة عن محيطها وإلّا تسبب ذلك في تشويهها وبترها . فالجزء لا يفهم إلا بالكل والكل بدوره لا يستغني عن الجزء. والفرضية الوظيفية بسيطة تقول بتلازم العضو والوظيفة وترابط العنصر والدور، وعلاقة شكل المجتمع بالغاية.

* **Marcel Mauss 1872-1950**

لا شك أن في هذا التصور شيء من المبالغة، لكن هذا لم يمنع الوظيفية – وقبل أن تسمى بهذا الاسم في الثلاثينات – أن تغزو ميادين شتى، زيادة على السلالة الاجتماعية والاجتماع واللسانيات التي ظهرت لها فيها آثار مبكرة. ففي التاريخ، ورغم مقاومة النزعة الثقافية الشديدة لها، استطاعت الوظيفية أن تنفذ إلى بعض الكتابات، خاصة تلك التي تعنى بالعوامل الاقتصادية ومدى تأثيرها في تطور المجتمعات حاضراً ومستقبلاً على غرار ما قام به المؤرخ الفرنسي الشهير مارك بلوك الذي اهتم بدراسة البنيات الزراعية محاولًا فهم سرها والكشف عن منطقها[12]. وهذا بالذات ما أقدم عليه أيضاً بعض الجغرافيين وأشهرهم على الاطلاق **روجي دِيون***، الذي عاصر مارك بلوك واشتهر بدراساته المعمقة في الجغرافيا التاريخية[13]. غير أن هذا الاتجاه الجغرافي التاريخي الوظيفي سيظل منحصراً في دائرة ضيقة جداً إلى غاية أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، فمنذ العشرينات وحتى هذا التاريخ ظل هؤلاء الجغرافيين القلائل كروجي ديون (الذي انعزل في **الكليج دِفرانس*** و **جول سيُون*** و **فراسنوا دي دَنفيل*** يعملون على هامش «المؤسسة الجغرافية» التي كانت تعدهم في عداد المؤرخين وليس من أسرة

12

بجانب مارك بلوك صاحب كتاب
Les caractéres originaux de l'histoire rurale française هناك جماعة من المؤرخين من نفس الطينة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر چستون روبنيل Gaston Roupnel الذي اشتهر بكتابه القيّم : Histoire de la campagne française

* **Roger Dion**

13

من بين مؤلفات روجي ديون المعروفة يمكن ذكر كتابين أساسين :
Essai sur la formation du paysage rural français.
Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX siecle.

* **College de France.**

* **Jules Sion**

* **François de S.J. Danville**

الجغرافيين. لكن مع الخمسينات بدأ الاتجاه التاريخي يستهوي البحث الجغرافي وبقي يؤثر فيه إلى غاية الستينات حيث فسح الجغرافيون المجال إلى مؤرخي الاقتصاد والمجتمع[14].

وقد يكون **ألْبير ديمُنجون*** أكثر الجغرافيين الفرنسيين انتماءاً إلى النزعة الوظيفية التي تعكسها جليّاً دراساته المعروفة حول السكن الريفي[15]. فهو قد نهج في هذا الموضوع نهجاً متميزاً، يختلف عن الرؤية التراثية ويبتعد عن الطرح الثقافي حيث عالج الموضوع انطلاقاً من متطلبات الريف، لذا فهو يعتبر البيت وملحقاته مجرد أدوات من جملة أدوات المزرعة. وبناءاً عليه تتشكل البيوت الريفية حسب نشاط الضيعة وحجمها وكذا متطلبات الأنعام الموجدة بها.

إن النزعة الوظيفية لم تقتصر آثارها على هذه الميادين من الدراسات الجغرافية وحسب، بل تجاوزتها إلى اهتمامات أخرى. ذلك أنها أصبحت تحظى بعناية من الجغرافيين الأمريكيين التابعين لمدرسة **الميدلْوست***، الذين تأثروا كثيراً بأعمال **كليمَنْتس*** في البيئة النباتية من جهة، واتجاهات المدرسة الاجتماعية بشكاچو بقيادة **بارك*** و **برجس*** من جهة أخرى. ومن سمات هذه المدرسة ذات النزعة الوظيفية اهتمامها البالغ واعتمادها الكبير على الخرائط الدقيقة التي تعبر عن تنظيم المكان وتجلي الروابط وبالتالي لا تستغني عن التأويل الوظيفي.

ومع ذلك فإن النزعة الوظيفية لم تحقق إلا القليل من النجاح بسبب ميلها إلى معالجة المواضيع معالجة شاملة جعلها في كثير من الأحيان تتجاهل قضايا هامة كالبعد الثقافي مثلا بدعوى أنه لا يمثل عنصراً وظيفيا يستحق الاعتبار. وهذا ما جعل الباحثين يعزفون عنها شيئاً فشيئاً، إضافة إلى كونها لا ترتكز على فرضيات معلنة واستعمالها لطرق متضاربة تحول بالفعل بينها وبين الفهم الشامل الذي تتوخاه.

2 ـ المدارس المبدعة

1.2 ـ المدرسة الفرنسية : العصر الذهبي

تعد المدرسة الفرنسية من أعرق المدارس الجغرافية وأكثرها تماسكاً،

* **Albert Demangeon 1872-1940**
* **Middle West**
* **Clements**
* **Park**
* **Burgess**

14

من النماذج التي يمكن تقديمها في هذا الباب فيما يخص الجغرافيا الفرنسية الأطروحات التالية :

Derruau (Max), **La Grande Limagne auvergnate et bourbonnaise, etude géographique,** Clermont - Ferrand, 1949.

Juillard (Etienne), **La vie rurale dans la plaine de Basse-Alsace, essai de géographie sociale,** Strasbourg, 1952.

Lebeau (René), **La vie rurale dans la montagne du Jura méridional,** Lyon, 1955.

Chevalier (Michel), **La vie humaine dans les Pyrenées ariégeoises,** Paris 1956.

Flatres (Pierre), **Géographie agraire de quatre contrées celtiques : Islande, Galles, Cornwall et Man,** Rennes, 1957.

Blanc (André), **La Croatie occidentale,** Paris 1957.

Moreau (Jean-Paul), **La vie rurale dans la sud-est du Bassin Parisien,** Paris, 1958.

Brunet (Pierre) **Structure agraire et économie rurale des plateaux tertiares entre le Seine et l'Oise,** Paris, 1960.

Gay (Fançais), **La Champagne du Berry,** Paris, 1967

Desplanques (Henri) **Campagnes Ombriennes,** Paris, 1969.

15

Demangeon (Albert). **Problémes de géographie humaine,** Paris. Armand Colin.

وإن لم تكن وحدة متراصة. وقد استندت في نشأتها ونموها على أربعة عوامل رئيسية. كان أولها تقدم الدراسات الطبيعية للأرض التي جمعت حولها بيانات أوفر ورسومات أدقّ، برّاً، وبحراً وجوّاً. وثانيها علاقة التاريخ بالجغرافيا التي اعتبرها المؤرخون في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين «المسرح الذي تجرى فيه الأحداث»، أي أنهم يوظفون البيئة الطبيعية كخلفية للتاريخ. وثالثها تعزيز مكانة الجغرافيا داخل المجتمع الفرنسي بفضل شخصيتين بارزتين : المؤرخ إميل لوفسور الذي عمل على ترسيخ تدريس المادة خاصة في المدارس الثانوية، والجغرافي الكبير إليزي رُوكلي الذي حظيت مؤلفاته الناجحة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي باهتمام الناس على اختلاف مستوياتهم، أما رابعها فكان التقدم المحسوس في معالجة الحقائق الاجتماعية التي انكب على دراستها **فْرِدِريك لُبْلي**.

* Frederic Le Play

وبالاضافة إلى هذه الاعتبارات العلمية قد تجدر الإشارة أيضا إلى الأوضاع الخاصة التي أحاطت بنشأة هذه المدرسة المتميزة. ففرنسا، وإن كانت قوة استعمارية، فهي ما تزال بلداً زراعيا في طور التصنيع، يشكو من أوضاع خطرة طبعت عهد الجمهورية الثالثة بعد هزيمة 1870 وما واكبها من أحداث اتصفت بالاضطراب السياسي والتراجع الاقتصادي والتوتر الاجتماعي.

تلك، إجمالًا، الظروف والملابسات التي تأسست فيها المدرسة الجغرافية الفرنسية في الربع الأخير من القرن الماضي بزعامة المؤرخ فدال دُلَبْلاش الذي تحول إلى الجغرافيا وهو يسعى إلى التقريب بين منهج الجيولوجي ومنهج المؤرخ، فراح ابتداءاً من سنة 1890 ينظم العمل الجغرافي ويطوره ويهذبه إلى أن تبوأت الجغرافيا المكانة الرفيعة.

1.1.2 ـ الوضع الأكاديمي للجرافيا

لم تكن فرنسا، سنة 1809، تتوفر إلا على كرسي واحد للجغرافيا أصبح شاغراً بعد موت **هِملي*** وهو أصلًا مؤرخ لم يؤثر قط على الجغرافيا الحديثة. وفي سنة 1892 أنشيء كرسي آخر عهد به إلى **دِيبُوا***، الذي كان

* A. Himley

* A. Dubois

يدرس جغرافيا المستعمرات والذي اشترك مع دُلَبْلاش في إصدار «الحوليات الجغرافية». ثم خلفه عليه **بِرْنار***.وفي سنة 1893 تم تأسيس معاهد بلِيل و لِيونْ ونَانْسِي. وفي سنة 1900 عينت كوكبة من المدرسين اللامعين بكل أنحاء البلاد : فدال دُلَبْلاشْ بالسُّربون، دِمَرْطون برِينْ، **كامينا دِلْمَايْدا*** بِبُورْدو، **لِسْپانْيولْ*** بِلِيون، **بِرْنار** بالجزائر و **بْرُون*** بفْرِيبُرْجْ بسويسرة. هذا في الوقت الذي كان فيه بعض المؤرخين يلقون في بُزَنْسونْ وكِلِرْمُون فِرَانْ والكليج دِفرانس دروساً في «الجغرافيا التاريخية». وهي كما يقول دِيكَنْسُن «مادة ضحلة تستخدم كخلفية في دراسة التاريخ، وبالأخص تاريخ الارتياد وأسماء الأمكنة واالتقسيمات الحدودية»[16].

هكذا كان الوضع حينما تسلم دُلَبْلاشْ كرسي الجغرافيا سنة 1899 خلفاً لِهِمْلِي، بعد أن كان يعمل بالمدرسة العليا للأساتذة. وفي عام 1906 كانت الجامعات الفرنسية تتوفر على سبعة وعشرين أستاذاً ومحاضراً في الجغرافيا. وبعد الحرب العالمية الأولى دخلت المادة كل الجامعات وكان أغلب أساتذتها تلاميذ لـدلَبْلاشْ.

وقد تجدر الإشارة إلى أمرين غالباً ما حجبهما النجاح الباهر الذي حققته الجغرافيا الفيدالية : الأول ارتقاء الجغرافيا السياسية على يد عالمين كبيرين : **أَندري سِجْفريد*** و **جَانْ أَنْسِلْ***[17]، والثاني ازدهار جغرافيا المستعمرات التي أنشيء لها أول كرسي بباريس سنة 1892، ثم كرسي ثـان بنـفس المكان في عام 1937 شغلـه **شَـارْل رُبْكان*** حتى وفاته عام 1963، وزيادة على الكرسيين هذين، نظمت كراسي شبيهة بالأقاليم في ستراسْبُورغ وإكْسْ أنْ بْرُفَانْسْ وبُورْدو سنة 1946، ثم في السنة الموالية أسس كرسيان في «مدرسة فرنسا لما وراء البحار»*، التي أنشئت عام 1889، وبجانب هذه الكراسي العديدة كان هناك كرسيان آخران : أحدهما بكلية فرنسا يشغله **پِيـيرْ جُورُو*** ويعنى بالجغرافيا المدارية، والآخر بالجزائر العاصمة تعاقب عليه بالتوالي : **هـارْدي*** ثم **بِرْنارْ** ثم **جُـوتْيي*** وقد توج أعمال هؤلاء الجغرافيين الذين نشروا العديد من البحوث حول آسيا والعالم العربي شرقا وغرباً، أطلس رائع للمستعمرات الفرنسية الذي ضم مساهمات كل من بِرْنَارْ و رُبْكَانْ و **وِيلَـرْس***.

* A. Bernard

* Camena d'Almeida

* Lespagnol

* Jean Bruhnes

16

Dickrnson R.E، سابق عن محمد علي عمر الفرا، سابق، ص 56.

17

كان جَانْ أَنْسِلْ تلميذاً لِدِيمَنْجون Demangeon وألف رسالة لنيـل الدكتوراة عن مقدونيا سنة 1930 وله دراسات في الجغرافيا السياسية للبلقان وبلدان أوروبا الوسطى. وقد كان من معاريضي النازية ومات في معتقلاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. أما سِجْفرد فقد ظل يشتغل بالبحث في الجغرافيا الاقتصادية والسياسية مدة طويلة «بالكليج دفرانس» وقد منحته كتاباته سمعة عالمية جعلته يلتحق بالأكاديمية الفرنسية سنة 1945.

* André Siegfried

* Jean Ancel

* Charles Robequain

* Ecole de France d'outre Mer

* Pierre Gourou

* Hardy

* Gauthier

* Wealersse

2.1.2 ـ الخصائص الكبرى للمدرسة الفرنسية

إذا كانت الجغرافيا العلمية قد تأسست في النصف الأخير من القرن التاسع عشر على يد الألمان، فهي ستعرف في الشطر الأول من القرن الموالي عصراً ذهبيا بفضل الفرنسيين. وقد اشتهرت هذه المدرسة الجغرافية التي طبقت سمعتها الآفاق، بالبحوث الإقليمية الدقيقة التي تنهض في رأي فِدَال دُلَبْلاشْ «بدارسة تفاعل القوى الطبيعية والحيوية المتحكمة في العالم وكيفية تبدلها حسب جهات الكرة الأرضية وتعقب تراكيبها وتداخلها».[18]

18

نقلا عن : Clozier (René), **Histoire de la Géographie,** Paris, P.U.F, Collection Que Sais-je ? n° 65 p. 97.

1.2.1.2 ـ الكثافات البشرية : منطلق البحث الجغرافي

من القضايا التي شغلت بال الجغرافيين الفرنسيين في هذه الحقبة تفاوت التوزيع الجغرافي للجماعات البشرية، سواء من حيث خصائصهم أو من حيث إنجازاتهم. وهذا السؤال، على بساطته، لاشك أنه يقود الباحث بالضرورة إلى سؤالين آخرين : يتصل الأول بمسألة العلاقة بين الإنسان والبيئة، والثاني بمشكلة التقسيم الإقليمي للأرض. إن السؤالين كليهما قد سبق طرحهما كما نعلم منذ زمن بعيد، لكن الجديد في المسألة هو تبسيط طريقة معالجتهما بواسطة خرائط للكثافات؛ هذه الخرائط التي ستصبح المرحلة الأولى لانطلاق البحث.

وقد ذهب پُـولْ كْلَفـالْ إلى القول، بعد أن ذكر أهمية التأثيرات الألمانية في الجغرافيا الفرنسية، بأن هذه الطريقة في تنظيم البحث الجغرافي وتبسيطها اجتهاد فرنسي أكثر مما هو اقتباس أجنبي. ثم تراه بعد ذلك يؤكد، تبعاً لغيره،[19]، إن «فكرة الانطلاق من خرائط الكثافات هي فكرة فرنسية محض»[20]. ومع ذلك فإن الفكرة نفسها نجدها عند الجغرافي الانجليزي هِـرْبِرْتسُن*، الذي يقول : «إن خريطة توزيع كثافة السكان هي أعظم تعبير مباشر للاستعلال الاقتصادي الفعلي للبيئة الطبيعية»[21]. لكن لا يرجح أن يكون الانجليزي هو صاحب الفكرة بدليل أنه وهب جل حياته العلمية القصيرة للأبحاث الطبيعية في علم الأرصاد وعلم البحار والنبات. ولم يعن بالجوانب البشرية إلا قليلا، قبيل وفاته سنة 1915، أي بعد

19

Brookfield (H.C), **Questions in the human frontier of Geography, Economic Geography,** Vol 40, 1964.

20

Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, pp. 60-61.

* **Andrew John Herbertson 1865-1915**

21

فريمان ت.وه **الجغرافيا في مائلة عام،** سابق، ص 89.

مرور اثنتي عشرة سنة على صدور أهم مؤلف لأشهر جغرافي فرنسي في ذلك الوقت[22].

ويتفق كْلَفال و نَارْدي*[23] ليرد الفكرة أساساً إلى إِمِيلْ لُفسّورْ الذي لم يكن مؤرخا فحسب، بل كان أيضاً عالماً في الاحصاء والسكان. وهكذا انشغل لفسّورْ كثيراً بقضية تفاوت حركية الساكنة بأوروبا. وهذا ما جعله ينشر أول خرائط الكثافات بالألوان، المعروفة بخرائط تزْكان* كذلك نجد أن إلزي رُوكْلي كان حريصاً هو أيضاً على استعمال المعلومات الاحصائية التي حشدها لوضع كتابه «الجغرافيا العامة» إذ وَكَل إلى **كْلود برون*** أمر إعداد الخرائط. فكان هذا الأخير أول من فكر في طريقة التمثيل المتناسب حسب أهمية الكثافة.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر أن فِدَال دُلَبْلاش حينما كان يعمل مدرساً بمدينة نَانْسي قد تعرف بأحد العاملين بمصلحة الغابات بالهند جاء ليتدرب بمدرسة المياه والغابات فأطلعه هذا الانجليزي على مرجع مشهور جداً هو «السجل الاحصائي لشبه القارة الهندية»*. ويعد هذا السجل أول إحصاء عصري يتم خارج منطقة يستوطنها الأوروبيون. وضمن هذا «الاحصاء» توجد أول المنشورات المتعلقة بكثافة سكان الهند لسنة 1870. وسيبقى هذا الاهتمام بالكثافة قائما حتى منتصف هذا القرن حيث لم يزل جُورو وتلاميذه يولون عنايتهم لوضع خرائط الكثافات والتساؤل عن ملامحها كما كان يفعل دُلَبْلاشْ[24]، الذي كان يقول : «إن وجود الكثافة المرتفعة للسكان له معنى الانتصار الذي لا يمكن تحقيقه إلا في ظروف نادرة وغير عادية»[25] وهو يطلق هذا الحكم على المجتمعات الحضرية والريفية على حد سواء لأن السيطرة على الموارد والتحكم فيها لا يفضيان فقط إلى تكون مجتمعات صناعية ضخمة كما في وادي الرُّور بألمانيا ووادي الكَلايْدْ باسْكُتلَنْدا، بل يخلق أيضاً تجمعات زراعية هامة كتلك التي تعيش في الغوطات باسبانيا وعلى طول الأنهار بالصين.

إن الكثافة السكانية وإن كانت من أيسر الوسائل المسخرة لتدقيق حدود الأقاليم التي تمثل غاية البحث وذروته، لا تعفي الجغرافي من تقديم تفسير لها. فهو مخير بين حلين : قوة البيئة المحلية أو تأثيرات العالم

22

Vidal de la Blache, **Tableau de la géographie de la France,** op. cit.

* **Jean Pierre Nardy**

* **Turquan**

* **Claude Perron**

23

Nardy (J.P.), **Levasseur, géographie,** in Paul Claval, Jean Pierre Nardy, **Pour le cinquantenaire de la mort de Paule Vidal de la Blache,** Paris, 1968, Les Belles Lettres.

* **Census of India**

24

إن العناية بمسألة الكثافة أمر واضح عند فِدَال دُلبلاش حتى في آخر مؤلف له «مبادىء الجغرافيا البشرية» (Les principes de la géographie humaine, Paris, A. Colin, 1922)، الذي لم ينشر إلا بعد أربع سنوات من موته. وقد خصص المؤلف باباً كاملاً من الأبواب الثلاثة من الكتاب إلى موضوع : «توزيع السكان في العالم» قسمه إلى ستة فصول.

25

عن فريمان ت. و، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، ص 197.

الخارجي. لكن كيف يُعالج الموضوعين وكيف يَفهم العلاقات في كلتا الحالتين ؟ جواباً على هذين السؤالين وظفت المدرسة الفرنسية مفهوما أساسيا وهو مفهوم نمط العيش مع التركيز على موضوع النقل والمواصلات.

2.2.1.2. نمط الحياة ومسألة المواصلات : محور الدراسة الجغرافية

- **مفهوم نمط الحياة : الروابط العمودية**

لعل **فْرِدِرِكْ لُبْلِي***، الاقتصادي والمهندس الفرنسي، كان أقوى الباحثين وأبلغهم أثراً في تطور الجغرافيا في كل من فرنسا وبريطانيا. ولذلك لا يمكن الاستغناء عن عرض بعض أفكاره وآرائه التي تغذت منها الجغرافيا في هذين القطرين. كان لُبْلي يشعر بعجز في طريقة تحليل الظاهرة الاجتماعية بالنظر إلى وحدات القياس المستعملة من جهة، ومنهج الاستقراء العلمي من جهة أخرى. فجاء بديله الذي يعتمد على الأخذ بميزانية الأسرة كمؤشر اجتماعي قابل للتدقيق، بناءاً على أن حياة الأسرة وتنظيم المجتمع يرتكزان على طرق المعيشة، أي العمل. «واعتقد لبلي بأن خاصية العمل تتحدد بدرجة كبيرة بحسب طبيعة البيئة أي المكان. وبناءاً عليه نحصل على المعادلة المشهورة : المكان والعمل والأسرة. وتعتبر هذه المعادلة محور دراسات ليلي الاجتماعية والمنجرافية».

* Frederic Le Play 1806-1882

«ويرى لُبْلي بأن تطور السكان الأوروبيين مر بثلاث بيئات جغرافية مختلفة هي [البراري] والشواطىء البحرية والأراضي الغابوية، كما بحث في تقسيم المجتمع على أساس ثمانية أنماط وظيفية رئيسية بحسب وسائل العيش : المتوحشون، والرعاة وصيادو السمك، والحطابون والمعدنون والزراع، والصناع، والتجار وأعضاء المهن الحرة. وأهمية هذا التصنيف تكمن في أنه يحاول، ولأول مرة، تصنيف المجتمعات على أساس دراسات العينة العائلية إلى عدد من الأنماط وتوطنهم بحسب علاقتهم ببيئتهم الطبيعية»[26].

وهكذا حظيت هذه الآراء باستحسان كبير إلى أن أصبحت مع الجيل الموالي موضوعاً رئيسياً للبحث الجغرافي، خاصة بعد أن طورها دُلَبْلاش ليستخرج منها فكرته عن نمط الحياة. ومن الأشياء الهامة التي

26

محمد علي الفرا، **اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر**، سابق، ص 58.

اقتبسها الجغرافيون عن منهج لُبْلي ضرورة البحث الميداني الذي أصبح أمراً شائعاً في فرنسا وبريطانيا، وعلى أساس المعادلة المذكورة : المكان والعمل والمجتمع. وهذا بالذات ما ستجليه أعمال دُلبلاش الذي كان يشجع تلاميذه على القيام بالتحريات الميدانية الدقيقة معتبراً بأن الجغرافيا الرفيعة هي تلك التي تجنى من الطبيعة مباشرة.

إن مفهوم نمط الحياة الذي يعد من أهم المفاهيم التي ظلت الجغرافيا البشرية المعاصرة ترتكز عليها ردحاً من الزمان، يعني العادات التي بها تؤمِّن جماعة بشرية بقاءها، أي كل المظاهر المادية لحياة الجماعات البشرية المتميزة بنشاط أساسي كالصيد أو القنص أو القطف أو الزراعة أو التدجين أو أنشطة متداخلة كالجمع بين الزراعة المستقرة والارعاء مثلا. ويشمل المفهوم عدداً من العناصر يمكن تقسيمها إلى : الأدوات المستعملة والمعطيات الاجتماعية والجوانب الروحية.

والجانب الأول يهم التقنيات كالمحاريث والنواعير وشباك الصيد، ويصف أساليب العمل كغرز الأرز وحرق الغابة واستخدام المراعي الجبلية. أما الثاني فهو يبرز العلاقات البشرية الناجمة عن مزاولة العمل داخل الجماعة؛ بينما يهتم الثالث بالطقوس التي قد تلعب دوراً في تنظيم العمل والحياة الاجتماعية كليهما. وهكذا يكون نمط الحياة عبارة عن مركب من التقنيات والأساليب قد يصل إلى حد التعقيد مع ظهور عناصر أخرى كالقانون الذي اعتبره دُلبلاش بمثابة : «بنية فوقية لنمط الحياة». فهو يرى أن الرعاة والزراع قد أصبحوا «متميزين بعضهم عن بعض بسبب عاداتهم وتصوراتهم الناجمة بالذات عن اختلاف نمط حياتهم»[27]، وهكذا فإن لكل نطاق جغرافي سلوك بشري خاص يسعى لاستغلال البيئة. ويتجلى هذا السلوك في نشاط السكان واستعمال أوقاتهم وأدواتهم وتنظيماتهم الخاصة من مراع وحقول وأسيجة ومسالك ومساكن ومرافق...

27

Vidal de la Blache (Paul), **Les genres de vie dans la géographie humaine,** Annales de Géographie, 1911, p. 194.

- **المواصلات : الحركات الأفقية**

يذكر دُمَرْطون في التمهيد الذي صدَّر به كتاب «مبادىء الجغرافيا البشرية» أن فِدال دُلَبْلاش، وإن لم ينه مؤلفه، قد تعرض مع ذلك لكل

المواضيع الهامة. ومسألة النقل تعد من بين هذه المواضيع، بدليل الحيز الكبير الذي خصصه لها المؤلف في الكتاب، أي باباً بأكمله اشتمل على أربعة فصول : الأول حول «وسائل النقل»، والثاني عن «الطرق»، والثالث يهم «السكك الحديدية»، أما الرابع فخاص بـ «البحر».

وهذا الباب الأساسي من الكتاب يوحي بإحساس صاحبنا بتعاظم أهمية النقل ودوره الفعال في محيط تتسارع فيه حركة العمران، بحيث أصبح التوازن الجغرافي لا يقوم على وجود علاقات عمودية بين الإنسان وبيئته فحسب (نمط العيش)، بل أيضاً على وجود علاقات أفقية تربط المجموعات البشرية المتنوعة والمتباعدة فيما بينها بروابط شتى. فكيف يمكن إغفال هذه الروابط وهي التي تسمح بتدفق الموارد الغذائية والأولية ومصادر الطاقة، وبالتالي بتنشيط الظاهرة العمرانية ؟ كيف يمكن تجاهلها وهي التي تساعد على انتشار التقنيات، وبالتالي على تقارب الأشكال الحضارية ؟

ويقول كْلَفالْ : «إن فدال دُلبلاش يعتبر الموضوع من الأهمية بمكان لا سيما أنه يعبر عن الجدلية القائمة بين الكل والجزء، تلكم الجدلية التي أخذها عن رَتَرْ والتي تمثل في رأيه سمة الفكر الجغرافي»[28]. ومع ذلك فإن كْلَفال يرى أن فِدَالْ وتلاميذه لم يعمقوا تلك المبادىء ولم يستثمروها لأنهم كانوا جميعا يسعون إلى تحقيق هدف آخر.

28

Paul Claval, **Géographie humaine et économique Contemporaine,** op, cit, p 62.

3.2.1.2 ـ اللوحة الاقليمية : سَنَم الجغرافيا الفرنسية

إن موضوع الكثافات لم يكن غاية في حد ذاته بقدر ما كان وسيلة ومؤشراً عملياً يبرز اختلاف التنظيمات المكانية وفق مؤهلات طبيعية معينة. فغاية العمل الجغرافي هي التحليل الإقليمي. وكما هو معلوم ليست هذه القضية أمراً طارئاً، بل هي مسألة قديمة سبق طرقها من وجهات متعددة منذ منتصف القرن الثامن عشر، بالنسبة لفرنسا على الأقل.

وخلال العقدين الأولين من القرن العشرين تمت محاولات عديدة لتجعل من الجغرافيا الاقليمية دراسة منطقية تساعد على فهم العالم على أساس المعلومات التي جمَّعتها رحلات المستكشفين في مرحلة أولى، ثم اعتماداً على عمليات المسح الأولية التي أخذت تغطي بعض أنحاء المعمورة.

ثم بعد ذلك، ولأسباب شتى، كالتنظيم الاداري والاستغلال الاقتصادي أو التجهيز الخ...، أصبحت الدراسات المحلية تنتشر. وهذه الدراسات المحلية هي التي أبرزت أوجه التباين العديدة داخل المناطق الكبرى وجلّت الجوانب الشاذة الكثيرة في الأحكام العامة الشائعة قبل العشرينات من هذا القرن[29]. وقد تجمع بالفعل كثير من الدراسات المحلية ومن أهمها تلك التي قام بها الجغرافيون الفرنسيين.

29

أنظر ت. و. فريمان، **الجغرافيا في مائة عام**، سابق، الفصل السابع، الفقرة الرابعة (فكرة الإقليم)، ص 87.

من المعلوم أن جلّ جغرافيي القرن الماضي، وعلى رأسهم رِيتَرْ، كانوا يعتبرون العالم برمته مجالاً لبحثهم. ولقد كان في هذا مدعاة إلى الانتقادات التي وجهت إليهم، نظراً لاستحالة تناول موضوع بهذا الحجم واستيعابه على الوجه الصحيح. وهكذا ظهر اتجاه معاكس من خلال المجهودات الأولى التي بذلت في فرنسا لوضع أسس متينة لدراسة «الوطن».

لكن الاتجاه «الاقليمي» في فرنسا فكرة قديمة طرحت مع بداية القرن الثامن عشر حينما ظهرت الحاجة إلى إعادة النظر في تقسيم البلاد التي ورثت عن العهد البائد لما قبل الثورة أوضاعاً تتنافى والعدالة الاجتماعية نظراً للتركز الاداري المفرط والتفاوت الصارخ بين المقاطعات وتطاول الحكام. وللتغلب على هذه المخلفات نودي بإقامة تنظيم ترابي جديد حاول في البداية أن يستند إلى «المناطق الطبيعية ذات الصبغة المحايدة» لا سيما وأن الخرائط الأساسية أصبحت جاهزة ومتوفرة، إذ تم مسح البلاد مسحاً شاملاً في التسعينات من القرن الماضي.

وقبل هذا كان أحد كبار خرائطي منتصف القرن الثامن عشر، **فِليپْ بُواشْ*** قد تقدم بتقسيم طبيعي للبلاد اعتماداً على الأحواض النهرية. لكن هذا التقسيم سرعان ما ظهرت عيوبه وثبت عدم صلاحيته بسبب تجزيئه لوحدات بشرية لا تقبل التجزىء.

* Philippe Buache

غير أن الجيولوجيين كانوا هم السباقين إلى بلورة فكرة الإقليم وطرح مشروع متماسك على أساس أول : الخرائط التي وضعها **جِيطارْ** و **مُني** والتي أوضحت، زيادة على المعالم الجيولوجية للسطح، أن البنية الباطنية للأرض تفسر إلى حد ما توزيع النباتات والموارد الفلاحية. ثم ها هو ذا **جِيرُو سُلَفي*** يضيف الجديد إلى الموضوع عند دراسته لمنطقة فِيفارِي. فبجانب

* Guittard

* Monnet

* Giraud- Soulavie

التنوع العِداني الذي يطبع السطح، هناك اختلافات مناخية ترجع إلى عامل الارتفاع. وهكذا يبرز إذاً مفهوم «الاقليم الطبيعي».

* C. Coquebert

* J.J. d'Omalius d'Halloy

وفي سنة 1808 كتب **كُوكْبيرْ*** بحثاً حول حوض باريس ميَّز فيه أقاليم مثل بُوصْ و چاتِيني، ثم في سنة 1817 وضع زميله **دُمَلْيُوسْ دَالْوا*** دراسة حدد فيها الأقاليم التي تنتمي إلى الزمن الثالث حول باريس ومنها بُوصْ وهي هضبة طباشيرية مترامية الأطراف متجانسة البنية تنتشر فيها زراعة الحبوب أساساً؛ ثم بْرِي وهو إقليم رطب تكثر فيه المستنقعات فوق تكوينات صلصالية؛ ثم چاتيني وهي منطقة منخفضة ورطبة، تربتها فقيرة تكسوها الغابة في غالب الأحيان.فهذه كلها وحدات لامراء فيها، تحمل أسماءاً خاصة وتطبع الحياة بطابع متميز.

* Lucien Gallois 1875-1941

* Pays

ولا شك أن هذه الإرهاصات هي التي دفعت **لُسْيانْ جَلْوا*** سنة 1908 إلى تأليف كتاب بعنوان «الأقاليم الطبيعية وأسماء الأقاليم» أوضح فيه أن أسماء الأمكنة في فرنسا قد ارتبطت منذ قرون عديدة بالأقاليم*، التي لم تكن تطابق أي تقسيم سياسي أو تنظيم إداري[30]. وهكذا مع توسع المسح وتدقيق الدراسات أصبح التراب الوطني ينقسم إلى وحدات طبيعية واضحة أخذت صورتها تترسخ عند الجميع بفصل تسمياتها القديمة والمتداولة بين الناس.

30

بعدها قام چَلْوا، خلال الحرب العالمية الأولى، بدراسات اقليمية شتى داخل وطنه (حوض الصّار ومناطق الحدود الشمالية) وخارجه (وسط اليونان وسالونيكا ومنطقة السويس).

* Auguste Longnon

ثم جاء المؤرخون يدلون بدلوهم في الموضوع مؤكدين على سداد رؤية جِرُو سُلَفي الذي كان قد تفطن إلى التسميات العريقة التي لقبت بها مختلف جهات إقليم فِفاري. وسرعان ما تبين الأمر نفسه في أماكن عديدة حتى اعتبرت الظاهرة قاعدة وليس استثناءاً كما أثبت ذلك المؤرخ **أُجُسْت لُنْيون*** من خلال أبحاث دقيقة أكدت التطابق بين الأقاليم وحدود الأبرشيات في العهد الأخير من الامبراطورية الرومانية.وهكذا يبرز مفهوم المنطقة التاريخية الذي غالباً ما يوافق الاقليم المحدود.

إن المناطق التي أخذ الجيولوجيون يرسمونها على الخريطة لا تعيش منعزلة عن بعضها البعض، بل تندرج في وحدات أوسع تمثل جسماً متكامل الأطراف، أي الأمة؛ وهي الفكرة التي أصبحت تتبلور عند

منتصف القرن التاسع عشر والتي عبر عنها الجيولوجيان **إلي دُبُومُو*** و **دُفْرِنُوا*** تعبيراً طبيعياً. فهما يعتقدان أن الكيان الفرنسي يقوم على اعتبارين جيولوجيين يتمثل أحدهما في قطب تجمع وهو حوض باريس الذي يجذب إليه المياه والناس، والآخر في قطب تفريع يعنيان به الكتلة الوسطى من الأراضي المرتفعة التي أطلقا عليها اسم الهضبة الوسطى. وعليه فإن وحدة التراب الوطني لم تتحقق في رأيهما إلا عند ما تمت السيطرة على المناطق الجنوبية من البلاد وأُحكمت المجازات النافذة إلى الهضبة (بُرْجُونْي، لُوراجي و پُواتو.

* Elie de Beaumont

* Dufrenoy

ومثل هذا التصور العُضواني*[31] نجده عند المؤرخ **العَلَم مِشْلي***، الذي ساهم هو أيضاً في ترسيخ فكرة الإقليم، فانطلاقا من مراجعته لِهِرْدَرْ خلص مِشْلي إلى ضرورة ربط تاريخ الشعوب بمسرح الأحداث والبيئة التي حكمتها. وهو ما عبر عنه في كتابه المعروف «تاريخ فرنسا» (1833 – 1867) الذي تمثل مقدمته لوحة ترسم تنوع البلاد واختلافاتها الاقليمية التي تستمد منها الأمة القوة والشخصية والعبقرية.

* Organicisme

* Jules Michelet 1798-1874

31

«العُضوانية تقول بأن وظائف المجتمع تسير طبقاً للقوانين البيولوجية التي يتميز بها الكائن العضوي مع اعتماد الأجزاء أو الأعضاء المختلفة على بعضها البعض فتكوِّن الجسم أو المجتمع ككل» أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 297.

أما بالنسبة للجغرافيين، الذين كان لجلهم آطلاع واسع على التاريخ، بحكم تخصصهم الأصلي كفدال دُلَبْلاش، أو بالنظر إلى تكوينهم العلمي وثقافتهم العامة، فإن فكرة الإقليم التاريخي فكرة معروفة لديهم كفرة الاقليم الطبيعي التي أرساها الجيولوجيون بحثاً وتدريساً كما فعل **ألبير دُلَپَّرا***، أحد أساتذة دُلَبْلاش الذي نهل من المعينين معاً مع الأخذ بجدلية المقاييس كما كان يراها رِيتَر. ولا شك أن هذا هو السرّ الذي جعله يرسم للأقاليم تلكم اللوحات التي تعج بالحركة وتنبض بالحياة. فدُلبلاش يجيد الحديث عن الطبيعة والناس معاً، وهم يتحركون ويعملون ويتعاملون، لا سيما أنه على وعي كامل بالدور الذي أصبحت تلعبه وسائل المواصلات العصرية – خاصة منها القطار – وبتوسع العمران وتطور الصناعة التي أخذت جميعها تشكل مشاهد جديدة غير مألوفة وترسم وحدات جغرافية متميزة. فدُلَبْلاش يستشعر تماماً أهمية هذا التمايز الجغرافي ويجعل منه وسيلة مفضلة للتحليل على غرار الرؤية العُضوانية لمِشْلي، إذ تفسر الجزئيات الكليات وتؤكد على فكرة التكامل كما يبرز ذلك كتابه الرائع «لوحة فرنسا

* Albert de Lapparent 1839-1908

الجغرافية»[32]؛ هذا الكتاب الذي وصفه هِرْبِرْتسن بأنه «إضافة جديدة إلى الأدب وإلى جغرافيا فرنسا معاً».

3.1.2 ـ كبوة الجواد

إن الجغرافيا الفرنسية، وإن كانت أكثر المدارس اهتماماً بالجوانب الاجتماعية[33]، سواء بدراسة أنماط العيش أو بتحليل دور المواصلات، لا يمكن اعتبارها علماً اجتماعياً. فدال دُلبلاش نفسه، ورغم ما ذكر، له موقف في غاية الوضوح بهذا الصدد حيث يقول بصريح العبارة : «الجغرافيا علم مكان وليست علم إنسان»[34]. وهذا هو السبب في عدم تدقيقه وتعميقه للمفاهيم الخصبة التي كان ينطلق منها والتي لا تعدوا مجرد أدوات تمكنه من وضع تفسير لاختلافات السطح. وهو ما يعتبره دُلَبلاش الهدف الأسمى للجغرافيا. وبهذا تكون المدرسة الفرنسية امتداداً للرؤية الريتيريَّة التي لقحها دُلبلاش وتلاميذه بتجديد موضوع الإنسان والبيئة عبر مفهوم نمط العيش.

ولعل من أهم أسباب تنكب الجغرافيين عن المسألة الاجتماعية وعدم الخوض فيها هو ذلكم الجدل الحاد الذي قام في السنوات الأولى من القرن (1900 ـ 1905) بين الجغرافيين من جهة وأتباع مدرسة دُوركَايْم الاجتماعية من جهة أخرى، حيث وجه هؤلاء انتقادات لاذعة إلى الجغرافيا البشرية، وخاصة إلى آراء رَتْزِلْ في موضوع البيئة[35]. ولنستمع إلى أَنْدري مِنْيي وهو يتحدث عن النازلة فيقول : «يبدو أن المدرسة الاجتماعية، وهي في غمرة نجاحاتها الأولى والمشروعة قد تعصبت لرأيها ولم تعد تسمح إلا به دون غيره. فهي تنكر على الجغرافيا رؤيتها الإقليمية بدعوى وجود مجتمعات بدون قاعدة ترابية. فهي تحب استبدال المرفولوجيا الاجتماعية بالجغرافيا»[36].

ولقد أفضى هذا النزاع، رغم فتور حدته فيما بعد، إلى تصلب موقف الجغرافيا معلنة براءتها من العيوب والنقائض المنسوبة لها، مؤكدة انتماءها الطبيعي ومعتزة بدقة منهجها. «فلا شيء يستطيع أن يقف أمام الحركة الفدالية»[37]. ومع ذلك فلابد من الاعتراف بأن الحادث قد أصاب الطرفين معاً بأضرار بليغة إذ فاتتهما فرصة سانحة للتلاقح المثمر والتبادل المفيد. فهو على كل حال أثنى الجغرافيا عن المضي قدماً في العناية بالمسألة

32

Vidal de La Blache (Paul), **Tableau de la géographie de la France** (Histroire de France. d'E. Lavisse, t.I), Paris, Hachette, 1903, 395p.

33

تدقيقا لهذه النقطة يمكن الرجوع إلى آراء بعض الكتاب، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

Derruau (Max), **Précis de géographie humaine,** 1963 op. cit, pp 8, 9.

Claval (Paul) Nardy (J.P), **Pour le cinquantenaire de la mort de Paul Vidal de la Blache,** Les Belles Lettres, 1968.

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France,** Paris PUF, 1969.

Buttiner (Anne) **Society and milieu in the french geographic tradition,** A.A.A.G. Monograph, n° 6, Chicago, Rand Mac Nally, XIV, 1971.

Lacoste (Yes), **La Géographie,** in **La philosophie des sciences sociales de 1860 à nos jours,** Paris, Hachette, 1973.

34

«La géographie est science des lieux et non science des hommes» cf Paul Viadal de la Blache, **Des caractères descriptifs de la géographie,** Annales de Géographie, Vol 22. 1973.

35

حول هذه المساجلة بين الجغرافيين والاجتماعيين راجع :

Berdoulay (Vincent), **The Vidal-Durkheim debate,** in David Ley, Marwyn Samuels (édit),

الاجتماعية وضمها إلى اهتماماتها الطبيعية والتاريخية وأقعد الجغرافيين عن التوسع والتعمق في كل الجوانب الهامة التي أثارها فِدَال كموضوع المواصلات.

غير أن متاعب الجغرافيا لم تنحصر في التعامل مع المسألة الاجتماعية فحسب، بل امتدت كذلك إلى ميدان التاريخ على إثر الملاحظات والانتقادات التي عبر عنها لُسْيان جَلْوا بشأن تهور الجغرافيين وسوء تطبيقهم لمفهوم الإقليم التاريخي الذي لا يطابق الاقليم الطبيعي المطابقة التامة[38]. ولقد لقيت هذه الملاحظات والانتقادات آذان صاغية. لكن الجغرافيا أخذت للأسف تنغلق على نفسها وتروم عن العلوم الاجتماعية الأخرى بالتدريج مركزة اهتمامها أساساً على المظاهر الطبيعية. ولا يستبعد أن تكون تلك التفاعلات من أهم العوامل المفسرة للمكانة العالية التي ستحتلها الجيوموفولوجيا فيما بعد.

إن هذا التراجع أمام العصوبات والعقبات المتوالية كان لا محالة سببا في إضعاف المدرسة الفرنسية التي آثرت على المعركة الفكرية الانسحاب والتقوقع وإن حاولت التوفيق بين اتجاهين من الاتجاهات الثلاثة الكبرى التي تحددت في القرن الماضي حيث وضعت مسألة البيئة في إطار إقليمي يكاد يحقق الرؤية الطبيعية التأليفية القائمة على «الموضوعية العلمية» التي تقتضي محاربة الميتافيزيقا والتصدي للفلسفة[39].

4.1.2 ـ مدرسة متنوعة

إن المدرسة الفرنسية، رغم وزن مؤسسها فدال دُلبلاش وشخصيته الفذة، مدرسة تمتاز بتعدد علمائها وتنوع أوجهها. ومن أشهر أقطابها أيضاً جان بْرونْ أحد تلاميذ دُلبلاش. وهو وإن كان يشاطر أستاذه كثيراً من الأكفار، لا يلتقي معه بخصوص المنهج. فبْرون لا ينطلق من خرائط الكثافات كما يفعل فدَالْ، بل من المشهد، على غرار الجغرافيين الألمان لأن المشهد في رأيه عنصر محسوس يسمح باحترام المنهج الوضعي وبالتالي بتحقيق الدقة المتوخاة. ولهذا كان بْرون أميل إلى التاريخ الطبيعي للأرض وتنوعها من دُلبلاش[40] كما يبدو ذلك خلال كتابه «الجغرافيا البشرية» الذي

Humanistic géography, prospects and problems, Chicago, Maaroufa Press, 1978; Cathrerine Rhein, **La géographie, décripline scolaire ou science sociale,** Revue française de Sociologie, vol 23, 1982.

36

Meynier (André), **Histoire de la pensée géographique en France,** op, cit, pp 33-34.

37

عينه

38

حول هذا الموقف لـجَلْوا أنظر :

Meynier (André), **Lucien Gallois,** in **Les Géographes français,** Comité de Travaux historiques, Paris, Bibliothèque Nationale, 1975.

39

قد توجد بعض الحالات الشاذة بهذا الشأن، لكن يظل هذا هو موقف دُلبلاش كما تذكر ذلك :

Robic (Marie-Claire), **La conception de la géographie humaine chez Vidal de la Blache d'aprés les Principes de géographie humaine,** Les Cahiers de Fontenay, n° 4, Géographie, E.N.S, de Fontenay aux roses, Sept 1976.

40

Jean Mariel, Bruhnes Delamarre, **Jean Bruhnes** in **Les géographes français,** op. cit.

تشير هذه الدراسة إلى النشاط الديني الذي قام به جان برون كنصراني ملتزم في الميدان الاجتماعي، وهو أمر يتصادم مع موافقة العلمية واهتماماته الجغرافية التي لا تتعرض للانسان إلا من خلال الآثار التي يخلفها على سطح الأرض !

نشره سنة 1900 والذي لم يتوفق فيه، على حد قول كلَفـالْ، من إقامة بناء فكري متكامل لم يتجاوز اقتراح تصنيفات عامة لا تترابط فيما بينها بروابط محكمة. وهي التصنيفات التي استلهمها من فكرة التقابل بين الاستعمالات النافعة للأرض والضارة بها* كما عبر عنها **فْـرِدْرِشْ*** [41] وهي فكرة قد تستطيع تجديد الرؤية البيئية لو لم يكتف برونْ بتقديمها كصنف إضافي من أصناف المشاهد واستعمالات الأرض التي يقترحها.

لكن إذا كان برونْ لم يستطع توضيح المبادىء التي ينـبني عليها العمل الجغرافي بالقدر الذي ساهم به دُلبلاش، فهو يدعو الجغرافيين، من خلال ملاحظاته البشرية، إلى التفتح على السِّلاليين والاستفادة من المهتمين بالتراث لأنهم يساعدون على فهم تـطور السكن والتقنيات والسلوكات التي تلعب كلها دوراً هاماً في تنوع سطح الأرض. إن هـذا الاتجاه الذي سار فيه أيضاً **بييـر دِفْنْطين*** يعتبر من الصفات المميزة للبحث الجغرافي بفرنسا في هذه الحقبة.

أما أَلْبِير دُمنجون* فهو أقرب إلى تصور دُلبلاش منه إلى رؤية برونْ كما يتـضح ذلك من دراساته الاقليمية، سواء منها أطروحته الشهيرة حول سهل يـكارْدي أو مؤلفاته المعروفة حول الجزر البريطانية، بلجيكا والبلاد المنخفضَة [42]. لـكنه أشد اهتماماً بقضايا العصـر ومشاكل الساعـة [43]. لذا نراه يستعين، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، بالعلوم الأخرى كالاقتصاد والاجتماع [44]. ولعـل هذا التفتح هو الذي جعله يعنى، أكثر من غيره بالتفسير الدقيق المنهجي ويأخذ بالطريقة النفعية كما هو واضح في دراساته للسكـن الريفي بالخصوص.

إضافة إلى هذين العلَمين البارزين، اللذين كانت لهما أيادي بيضاء على المدرسة الفرنسية، هناك كثير من الأسماء اللامعة التي لها إسهاماتها القيّمة مثل **جُـولْ سيونْ***، الذي تميز بربطه الدائم للمظاهر المكانية بالجوانب الاجتماعية والثقافية [45]؛ و **رَاوُول بْلَنْشارْ*** «أحد أعلام الجغرافيا الاقليمية الفرنسية». ناهيك طبعاً عن الجيوموفولوجيين الذين تألق بعضهم بدراسات تأليفية حول مناطق معينة. فكَتب دُمَرْطون عن أوروبا الوسطى، بينما اهتم **بُليـجْ*** بأمريكا الشمالية.

41

Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaine,** op. cit, p 66.

*** Raubwirtshaft**
*** E.Friedrich**

42

Demangron (Albert), **La plaine picarde : Picardie, Artois, Cambresis, Etude de géographie sur les plaines de craie du nord de la France,** Paris A.Colin, 1905; id **Les Iles Britanniques,** Paris, A. Colin, 1927, id **Belgique, Pays, Bas, Luxembourg,** Paris, A. Colin, 1927.

*** Pierre Desfontaines**
*** Albert Demageou**

43

لألْبِير دمنجون في هذا الباب كتابان أساسيان :

Le déclin de l'Europe, Paris, Payot, 1920.
L'Empire britanniqe, Etude de Géographie et ethnologie, Annales Colin, 1923

44

للإشارة فإن دمنجون كان عضواً في مجلس إدارة مجلة «الحوليات الاجتماعيـة» «Les Années Sociologiques»، التي أسسها دوركَايْم.

45

Sion (Jules), **Les paysans de Normandie orientale,** Paris, A. Colin, 1908; id **Bases géographiques de la vie sociale, Habitat rural,** Les Années Sociclogiques, 1936; id, **Géographie et ethnologie,** Annales de Géographie, Vol 46, 1937.

*** Jules Sion**
*** Raoul Blanchard**
*** Henri Baulig**

2.2 ـ المدرسة الألمانية : البعد الحضاري في الجغرافيا

إن تألق المدرسة الفرنسية خلال النصف الأول من قرننا هذا لا يمكن أن يحجب عنا ما كان للمدرسة الألمانية من شأن رغم التردي الذي أصابها والهبوط الذي آلت إليه بعد وفاة مؤسسي الجغرافيا المعاصرة هِمْبُلْت و رِيتَرْ. فهي إذاً مدرسة عريقة وذات أصالة؛ امتد إشعاعها حتى خارج مهدها، فانعكس بدرجات متفاوتة على جل المدارس الأخرى، وأثر في أغلب اتجاهات الجغرافيا.

1.2.2 ـ نشأة مضطربة في ظروف حساسة

إذا كان تأسيس الجغرافيا العصرية عملاً ساهم فيه كل من هِمْبُلْت و رِيتَرْ فلربما رجع الفضل إلى هذا الأخير في تهذيب المادة وتوجيهها[46]؛ إذ عكف على صياغة منهج علمي وفق فلسفة غائية تجمع بين الطبيعة والإنسان في وحدة متكاملة. لكن رِيتَرْ لم يؤسس مدرسة، بل لم يكن له حتى تلاميذ، باستثناء رُكْلي. ورغم ذلك ظلت أفكاره تحيا لما يزيد عن نصف القرن، أي إلى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، حتى احتضنها الهواة. بينما فرطت فيها الجامعات وهكذا بار الفكر الريتري فتدنت الجغرافيا إلى الدرك الأسفل من العلوم، مكتفية بدور تجميع المعلومات وتقديمها للتاريخ و «الاحصاء»[47].

1.1.2.2 ـ سنوات عجاف

وهكذا باتت الجغرافيا غائبة عن الجامعة حتى عام 1875 وهي السنة التي أنشيء فيها عدد من الكراسي. لكنها لن تستقل مع ذلك إلا سنة 1881 في أعقاب أول مؤتمر للجغرافيين الألمان ببَرْلين الذي تمت فيه المطالبة بالفصل بين التاريخ والجغرافيا في برامج التعليم. وبهذا أصبح للمادة كيانها؛ إلا أنها سرعان ما قوبلت بالتشكيك والريبة والحذر من قبل التخصصات التي اعتادت بسط نفوذها عليها؛ وعلى رأسها الطبيعيات والتاريخ اللذين لن تفلت من هيمنتهما إلا بشق الأنفس. فها هو ذا الباب مفتوح لكل متطفل والفرصة سانحة لكل متطاول مثل بِشِلْ*؛ هذا الذي كان يشتغل

* Oskar Peshel

46

هذا ما يستقر عليه رأي جل الباحثين مثل :

Schultz (Hans-Dietrich), **Die deutschsprachige Geographie von 1800 bis 1970. Ein Beitrag zun Gesschichte ihrer Methodologie.** Abhandlungen des Geographichen Instituts. Anthropogeographie, Band 29, Universität Berlin, 1980.

47

Holtz (Jean Marc), : عينه، عن
Lectures, **Radiscopie de la géographie allemande,** l'Espace Géographique, revue trimestrielle, Tome XII, n° 2, avril-juin, 1983, pp 157-159.

بالقانون والصحافة، ثم راح ينصب نفسه جغرافيا، يتعرض لِرِتَرْ وينتقده ويعمل على نشر الجغرافيا وتعميمها حتى حقق لنفسه شيئاً من الشهرة[48]. وإن دلَّ هذا على شيء لدل على عدم وضوح «علم الجغرافيا» من جهة، وانقطاع الفكر الرِّتِري من جهة أخرى. لكن الأمَر والأدهى من ذلك هو ما أصبح يبغيه بعض هؤلاء كالجيوموفولوجيّين **فْروبَلْ*** وَ **جِرْلَند***، اللذين أخذا يناديان بالتفريق بين علوم الأرض وعلوم الإنسان وإقامة جغرافيا طبيعية مستقلة الذات.

48
Jean Marc Holtz, **Radioscopie de la géographie allemande,** op. cit.

* Frobel
* Gerland

2.1.2.2 ـ عودة الروح

وفي خضم هذه الأحداث الجسام استطاع **رَتْزَل** بفضل كتابه «الجغرافيا البشرية»*، الذي نشره سنة 1882 حماية الإرث الرِّتِري من الضياع التام من جهة، والحفاظ على وحدة المادة من جهة أخرى. غير أن رَتْزَل رغم مكانته الأكاديمية السامية لم يكن له في بداية الأمر أنصار يؤازرونه وتلاميذ يظاهرونه بسبب الحتمية التي بنى عليها معتقداته البيئية. أما آراءه حول الجغرافيا السياسية فهي، على تماسكها، ستظل تياراً ثانوياً لن تبرز قيمتها إلا في العشرينات من هذا القرن.

* Anthropogeographie

أما **إدْوَرْ هَانْ***، الذي يعد اليوم من رواد الجغرافيا الحضارية العصرية فهو ركز اهتمامه على تاريخ الزراعة منذ أن أصبح الإنسان يستأنس الحيوان ويزرع النبات. فقابل الأنظمة التي تستعمل المجرفة بالتي تستخدم المحراث، طارحا في نفس الوقت قضية العلاقات بين الوسائل والمعتقدات. هذا في الوقت الذي أثار فيه **فرِدْرِش*** قضايا أساسية في البيئة البشرية بجانب اهتماماته بالجغرافيا الاقتصادية التي عبَّر عن أهدافها تعبيراً سليماً وناقش طرقها ومناهجها. في حين كان **رِختوفَنْ*** يدافع، منذ السبعينات، عن التصور الاقليمي للجغرافيا على غرار هَمْبُلتْ وريتَرْ. وهو الهدف الذي عمل تلميذه البارز ـ **ألْفرِدْ هِتْنَر*** على تحقيقه.

* Edouard Hann
* E. Friedrich
* Ferdinand von Richthofen
* Alfred Hetner

لقد تفطَّن هِتْنِرْ إلى ما أخذ يداهم الجغرافيا من صعوبات جمة قد تعرِّض وحدتها إلى الهلاك المحقق، لذلك سارع إلى الاعتناء بقضية المنهج وتأصيل المادة انطلاقاً من قناعاته الرِّيتِرية من جهة، وتعاليم معلميه من جهة

أخرى أمثال **كِرْشوف*** و **رِختوفَن** و **فيشَر***. فإذا كان توزيع الظواهر على سطح الأرض ميدانا دراسيا لا ينازع الجغرافيا فيه أحد كما يرى **هِتْنَر** فإن موضوعها ينصب على تحليل التنوع الإقليمي للقشرة الأرضية.

* **Kirchoff**
* **Fisher**

وظل **هِتْنر** من سنة 1875 إلى سنة 1930 يدافع بعزم وثبات عن رأيه داعياً بقوة إلى الأخذ بالمنهج الاقليمي مستشهداً بكَنْط أو ببعض الفلاسفة الكنطيين الجدد مثل **رِكَرْت** و **وِنْدَلْبَنْد** فهو يرى «أن المقصر في أمر الجغرافيا الاقليمية ضال عن الجغرافيا نفسها : فمن لم يفهم ذلك ما كان جغرافيا حقّاً»[49]. ولقد كان **هِتْنر** مسموع الكلمة فاتخذ من مجلته الشهيرة* منبراً له حتى أن **هَرْشورْن** راح يعمل لنشر أفكاره والترويج لها. ورغم ذلك لم يكن لهِتْنر على الجغرافيا الألمانية ما كان لدُلبلاش على الجغرافيا الفرنسية من ريادة وقيادة، كما أنه لم يرق بها إلى نفس المراتب.

49

عينه، ص 158.

ويوعز هذا إلى اختلاف الأسلوب في المعالجة الاقليمية عند المدرستين. فالطريقة الألمانية تكتفي بوصف الخصائص الطبيعية الكبرى من تضاريس ومناخ ونبات وربط بتاريخ الشعوب[50]. ومع ذلك فإن المدرسة الألمانية لا تعير التاريخ الاهتمام اللازم إذ تغفل عن إبراز الوحدات الاقليمية التي يستشعرها الناس، بخلاف ما يفعله الجغرافيون الفرنسيون كما نعلم. ومهما يكن من أمر فإن التصور الاقليمي عند **هِتْنر** لم يكن ليغير من أوضاع الجغرافيا العامة كما رسمها **رِختوفَن**.

50

وهذا هو بالذات النهج الذي سار عليه هِتْنر في كل دراساته الاقليمية، دونما تغيير أو تطوير.

* **Geographische Zeitchrift**

3.1.2.2 ـ حركة التجديد

ظلت الجغرافيا الألمانية، إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ورغم ما شهدته من نقاش، تعيش حالة اضطراب بسبب الغموض الذي بقي يكتنف موضوعها. ويذكر **جيتْسبك*** أن مفهوم «اللاندسكيپ» الذي أخصب الجغرافيا الألمانية وبعثها من مرقدها، مفهوم ولد في أحضان المدرسة الابتدائية أي ما سمي بالجغرافيا السردية أو الموسوعية. ويشير **بُوص*** (1869) في هذا الصدد أنه كان للمدرسة منهج خاص في تلقين المادة، ينطلق من القرية أو الإقليم الصغير* ليضم بالتدريج هالات متوالية تغطي تراب الإقليم* ثم مجالاته الهامشية. وهذه الطريقة التي لا شك أنها

51

Hans Drietrich Schultz, **Die dentschsprachige geographie von 1800 bis 1970,** op. cit.

* **Geitsbech**
* **Landerkunde**
* **Böses**
* **Heimat**
* **Vaterland**

تتوافق وتصور المكان عند الطفل هي التي شكلت الخط الفكري لعدد من الباحثين مثل **جرَانو*** أو حتى **مولْس***. وهكذا جنت الجامعة ثمار تجربة المدرسة كما هو وارد عند كِرْشوف الذي اشتهر كباحث مقتدر ومدرس ماهر.

* J.G.Granö
* A. Moles

ومن الغريب حقا أن تسكت المراجع الألمانية عن الدور الذي قام به **فِلْهَلْم هَيْنرِش ريل***[52] بالنظر من جهة إلى الدور الذي اضطلع به على مستوى التعليم، ومن جهة ثانية إلى المكانة الرفيعة التي كان يحتلها في الساحة الثقافية للبلاد في منتصف القرن. فريلْ هذا ينتمي إلى فئة المثقفين المحافظين الذين هالهم وضع المجتمع وما سار إليه. فهم يرون أن المجتمع بناء مرصوص يشد بعضه بعضاً، تجمعه المصالح المشتركة وتربطه نفس القيّم والمثل. وكا رِيل يشعر بهشاشة هذا المجتمع الذي لم يحقق الاندماج بين البرجوازية التقليدية والطبقة الكادحة الصاعدة. فهل من سبيل لدفع مكاره هذه الأخطار ؟ نعم يقول رِيلْ وذلك بفضل التعليم الذي يقدر على تربية المواطنين وإشعار الجميع بالمصير المشترك، الأمر الذي يستدعى الحفاظ على التقاليد التي بدونها ينهار المجتمع وتتقوض أركانه. لكن رِيلْ كان يرى أن الكتب وحدها لا تكفي، لذا فهو يلح على استغلال كل الفرص المتاحة لبلورة عبقرية الشعب وقدرته.

* Wilhelm Heinrich Riehl

52

لِريلْ عدة مؤلفات منها

Land und lente, Stuttgart. J.G, Cotta. 1861,
Culturstudien aus drei Jahrhundenten, Stuttgart, J.G. cotta 1862.
Vaturgeschichte des volkes als Grundlage einer dentchen sozial politik, stuttgart, Cotta 1851, 4 vol, 1869.

وبهذا يكون رِيلْ أميل إلى هِرْدر منه إلى رِتَرْ. فهو لا يسعى إلى ضبط الجدلية القائمة بين شعب وأرضه، بل يهتم بالنتائج، أي بالمنجزات التي لا يمكن لمس دلالاتها البشرية إلا عن كثب من خلال التجوال في ربوع الاقليم بما فيه من مدائن وأرياف. فإدراك الاقليم إذاً يتم مباشرة وبالمشاهدة الدقيقة لكل جوانب الحياة. وهكذا أخذت الناشئة الألمانية تتعلم جغرافيا بلدها عبر الرحلة الميدانية أو الرحلة الخيالية التي تسمح بها الدروس.

صحيح أن دور رِيلْ قد اقتصر على التعليمين الابتدائي والثانوي دون الجامعة – وهذا ما يفسر ربما غيابه في كتب الجغرافيين – لكن ذلك لا يقلل من دوره الفعال في إغناء الجغرافيا والدفع بها قُدما كما يشهد له بذلك بعض الدراسين[53]. فهو قد أحيا الشعور – بأسلوب آخر – بالمشهد و «شحنته» التاريخية ودلالته الحضارية. وهو الشعور الذي سرعان ما دبَّ

53

Karlheinz (Filip), **Leçons allemandes de géographie,** Mosella, vol 8, 1978, pp 145-167.

Hans-Dietrich Schultz, **Die dents chspragige von 1800 bis 1970,** op. cit.

بالفعل في كيـان الجغرافيا الألمانية لينتقل بعدها إلى الأقـطار المجاورة.

إن ما طبع الجغرافيا الألمانـية في بداية القرن العشرين هو تخلصها من تأثيرات رَاتزِلْ وتـطوير موضوع البيئة وإفـراغـه في قالب الدراسة الاقليمية وفـق ما كان يراه هِتْنَر و رِخْتوفَن ومن سبقهما من كبار جغرافيي القرن التاسع عشر؛ وإن كانت هذه الجغرافيا الاقليمية ستركز بالأساس على موضوع استأثر بكل الاهتمامات : ألَا وهو موضوع «المشهـد»*.

* Landschaft

2.2.2 ـ «الـلانْدشَفْت» : جوهـر المدرسـة الألمانيـة

إن كان هناك اعتقاد سائد بأن مفهوم «اللاندشفت» ثمرة منحتها المدرسة إلى الجامعة، فهناك أيضاً من يرى غير ذلك كـ**شُلْتز**(1980) الذي يوعزه إلى كتاب «الجغرافيا العسكرية» الذي ألفه **هُومَيا*** في بداية القرن التاسع عشر، سنة 1805. وهذا الغموض في أصل الفكرة – بصرف النظر عن الدقة التاريخية – قد يحجب عنا حقائق في غاية الأهمية لو صَحَّ زعْـم شُلْتز؛ لا سيما وأن القضية مرتبـطة على ما يبدو بجوانب حربيـة وسياسية. وقد لا يستبعد أن يكون المفهوم وليد المصدرين معاً. وعلى كل حال فإن **أُوطُوشْلوئر**، الذي يعتبـر «أول من جعل من الجغرافيا علم المشاهد»[54]، لم يكن يرمي إلى أبعد من وصف اختلافات السطح نتيجـة تفاعـل العوامل الطبيعية، وإن كان لا يمانع في بحث الجوانب المستورة من تلك الظواهر. وهذا ما أقدم عليه بالفعل غيره. ولكي تتأسس المدرسة الألمانية كان لابد من تجاوز هذه المواقف المختلفة ولَـمِّ شتاتها. وهذا ما حدث بالذات ابتداءاً من سنـة 1910.

* Hommeyer

54

Paul Claval, **Géographie humaine et économique contemporaire,** op. cit. p 35.

1.2.2.2 ـ دلالات « الـمـشـهـد »

في كتابه «طبيعة الجغرافيا»* تعرض هَرْتشورن لمفهوم «اللاندسكيب» عند الألمان فبين ما فيه من غمـوض وشبهـة؛ ثم جاء بعده **هارْد*** ليؤكد نفس الملاحـظة[55]. وكلاهما يريان لنفس اللفظة دلالة مزدوجة تعني «المشهد» بمعنى «الاقليم» ككيان يندرج في تصنيف مكاني معين، وأيضاً «الوحدة الجمالية». وهكذا كان يحرك الجغرافيا الألمانية في بداية

* The nature of geography

55

Hard (G.) **Die « Landschaft » der Sprache und die « landschaft » der geographen,** Bonn, Dümmlers, 1970.

القرن العشرين تياران اثنان : الأول يحلل التفاعلات ويطمح إلى تقديم تفسير علمي للمكان، وهو اتجاه يتصل بِرِتَرْ عبر كوكبة من الجغرافيين منهم كِرْشوف و وُولْ*و جَتسْبِك*. أما الثاني، أي التيار «الجمالي» أو «الانطباعي»، فهو اتجاه لاحق يولي الاهتمام أولًا وقبل كل شيء إلى الواقع المحسوس وما ينطوي عليه من تنوع كما عبر عن ذلك لفيف آخر من الباحثين (راتزَل، هُوميا، أُپْل*، شونْ* فيمَرْ*...) وهذا التقابل بين جغرافيا تعميمية ومعيارية تهتم بانتظام الظواهر وتصنيفها بغية استخراج قوانينها* وجغرافيا إقليمية* تعطي الأسبقية للتحليل الأحادي ودراسة الوحدة المنفردة، ما يزال يغذي الجدل حتى يومنا هذا، داخل المدرسة الألمانية وخارجها[56].

* Gatsbeck

* Opel
* Shöne
* Wimmer

* Landschft skunde
* Landerkunde

56

Bartels (Dietrich), **Perspectives de base dans la géographie ouest-allemande** Contemporaine. l'Espace géographique, n° 3, 1978, pp 155-167.

ومن الثابت أن «الثورة المحافظة» التي أخذت أفكارها تغزو النخبة الألمانية، جعلت البحث الجغرافي يتنصل بعض الشيء من النموذج الطبيعي وينسلخ عن المذهب الوضعي الذي يرفده لعدم ملاءمته لمعالجة موضوع المشهد؛ هذا المشهد الذي تميزه خصائص اجتماعية طبقاً لإرادة معينة : فهو النسيج الذي تحوكه أصابع الشعوب وتطرزه بخيوط فكرها وحضارتها. تلكم هي نظرة رِيل للموضوع، وهي النظرة التي سرعان ما استهوت الجغرافيين وأخذت توجه البحث الجامعي وتؤثر فيه. ولنبادر إلى القول بأن هذا الطرح ليس بدعاً فهو يستمد خذوره من الفكر الألماني الذي ورث عن هِرْدر وفلسفة التاريخ بالمنظور الهيچيلي أن الفكر ترجمة جماعية أكثر مما هو تعبير فردي. لذلك كان لزاماً أن تحظى الأمة في هذا الفكر – سواء كانت شعبا أو مجرد فئة – باهتمام يزيد عن اهتمامها بالفرد. ومعنى هذا أنه يمكن النفاذ إلى الفكر عبر المظاهر المادية التي هي وحدها تفصح عن آثار الشعوب وتعبر عن عبقريتها. ولا شك أن في الأوضاع الاجتماعية لبلدان أوروبا الوسطى ما يبرر هذا الاتجاه، حيث ما يزال الشعور بالانتماء السلالي حيّاً؛ بخلاف بلدان أوروبية أخرى كإيطاليا أو فرنسا مثلا. وهذا ما عبر عنه بالفعل وبصفة مبكرة أُجسْت مَايْتزِن*[57].

* August Meitzen

57

Meitzen (August) **Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen und Ostgermanen der Kelten, Römer, Finner und Slawen,** Berlin, Hertz, 1895, 4 vol.

غير أن البحث الجغرافي الذي جعل من المشهد موضوعاً له قلما بلغ أهدافه وحقق طموحاته بسبب فرطه في التدقيق والتحري في